العرب والكونغو

فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر

دكتور يواقيم رزق مرقص

بعد أن استقر العرب العمانيون فى شرق أفريقيا ، وأسسوا لهم مدنا تدين بالولاء لسلطان مسقط ، بدأوا يدخلون آحادا الى الداخل ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، وراء جمع العاج ، الى أن جاء عهد السلطان السيد سعيد فلقوا منه التشجيع ، ومضوا يدلفون الى وسط القارة فى شكل رحلات قصيرة تطول الواحدة عن الأخرى ، حتى حل عام ١٨٥٦ وصلوا الى اكثر من الف ميل داخل افريقيا ، واتخذوا لهم مراكز تجارية فى أرض الأونيامويزى(١) .

عوامل دفعت العرب للدخول الى الكونغو :

أولا : عدم توقعهم مقاومة جادة من السكان الأصليين ، نتيجة لسرعة تعرف العرب على عاداتهم واحترامهم لها .

ثانيا : اجادتهم الملاحة ، فاستغلوا أفرع نهر الكونغو ، كنهرى اللوالابا، واللومامى ، مما سهل عليهم الدلوف الى أغوار الكونغو وغاباته الكثيفة .

ثالثا : غنى الكونغو بالعاج ، وكان سلعة مطلوبة فى أسواق الساحل يأخذه الأجانب الى أوروبا ، وهى السلعة الوحيدة التى كانت تتحمل النقل لمسافات طويلة على خلاف محاصيل قلب القارة الأخرى(٢) .

---

(١) يواقيم رزق مرقص : حميد بن محمد المرجبى والوجود العربى فى الكونغو ، ماجستير غير منشورة ، ١٩٧٥ ، ص ص ١—٥ .

(2) Oliver, R. : A history of East Africa. vol. I, London 1963, p. 267.

طرق التجارة العربية الى الكونغو :

اكتشف العرب — خلال جولاتهم داخل القارة — عدة طرق أوصلتهم الى الكونغو ، وكانت رحلتهم الى الكونغو تنقسم الى مرحلتين :

الأولى : تبدأ من الساحل الى ضفاف بحيرة تنجانيقا .

الثانية : من بحيرة تنجانيقا الى أفرع الكونغو متجهين نحو مصبه .

فطرق المرحلة الأولى تشتمل على طريق من بجامويو وينجه جنوبا ليصل الى أولى المحطات العربية فى الطريق وهى طابوره Tabora على بعد ٦٠٠ ميل من الساحل الشرقى لأفريقيا ، ثم ينتهى الى شواطىء تنجانيقا، وطريق ثان جنوبا يبدأ من كلوا الى بحيرة نياسا ، ثم يدخل الى وسط القارة . أما طريق المرحلة الثانية فساروا فيها غربا الى داخل الكونغو مستعملين أفرعه ، كنهر اللوالابا ، أو شمالا خلال فرع أرويمى ليصلوا به الى شمال شرق الكونغو الغنى بالعاج(٣) .

ولم تكن هذه الطرق سهلة ، اذ كانت تجوس داخل ظلام الغابات الاستوائية الكثيفة ، بما حوته من أخطار ، فضلا عن شدة مراس الزنوج ، الا أن ظروف تفكك البانتو فى منطقة المانييما شرقى الكونغو خففت من تلك الأخطار(٤) .

وأمام انتشار التجارة فى منطقة شرق الكونغو ، وارتباط العرب بمواسم صيد الأفيال ، أو مواعيد وصول الرقيق لحمل العاج الى الساحل — حيث كانت أسهل وأرخص الوسائل لنقله — بدأوا يستقرون ولو الى حين فى تلك البلاد ، فجعلوا يستغلون وجودهم فى زراعة بعض المحاصيل التى تخدمهم ، مستعينين بالوطنيين ، ومن ثم عاشوا فى تجمعات مدنية مثل :

---

(3) The Journal of African history, vol. XI 1970, p. p. 535-537

(4) Slade, R. : King Llopold's Congo, London 1962, p. 39. &

صلاح العقاد وجمال زكريا قاسم : زنجبار ، ١٩٧٩ ، ص ٧٨ .

(5) Stanley, Th : Stanley's way, London 1960, p. 69.

طابـــورة Tabora :

وكانت أكبر المستوطنات العربية شرقى تنجانيقا ، على بعد ٦٠٠ ميل من الساحل الشرقى الافريقى ، كما كانت ملتقى عدة طرق من الشرق الى الكونغو ، فضلا عن خصوبة أرضها ، عاش فيها وجهاء العرب ، وبلغوا ١٢٥ أسرة عربية فى نهاية القرن التاسع عشر ، كما ساكنهم فيها الهنـــود والزنوج ، وعاشوا عيشة ترف ، كانت محل وصف الأجانب(٥) .

أونيانيمبى Unyniembe :

وسط أرض الأونيامويزى ، أسسها العرب عام ١٨٤٠ على ملتـــقى الطرق المتجهة من تنجانيقا الى الكونغو ، والآتية من فيكتوريا وأوغندا جنوبا الى أوسانجا . ورغم سوء مناخها وانتشار الملاريا فيها ، فقد تحملها العرب، لأنها كانت سوقا رائجة ، قايض فيها الوطنيون عاجهم ورقيقهم العرب بالخرز والأسلاك ، كما كانت محطة استبدال للحمالين(٦) .

أوجيجى Ujiji :

أسسها العرب على مرفأ صغير ، فى الشاطىء الشرقى لبحيرة تنجانيقا لتكون منطقة عبور البحيرة الى داخل الكونغو ، وقد قاسمهم الزنوج سكناهم فيها، صنعوا فيها القوارب التى حملت البضائع والركاب داخل انهار الكونغو ، كما استغلوا طبيعتها فى زراعة الأرض بالحدائق والمحاصيل التى كانت تلزمهم — كالأرز — فى مستنقعاتها التى اصطادوا منها فرس النهر ليستخرجوا أسنانه للزينة(٧) .

كازيـــه Kazeh :

كانت على بعد ٦٠٠ ميل ، وكانت شمالى طابوره ، التقى فيها العرب ، والبلوخ ، والهنود فى تجارة رائجة ، ورغم قلة عدد العرب فيها ، الا انهم كانوا أصحاب رؤوس أموال كبيرة ، فعمل الهنود لديهم(٨) .

---

(6) Burton, R. : The Lake regions of Central Africa, vol. I, p. p. 325-326.

(7) Stanley, H. M. : Through the dark Continent, vol. 2, London 1878, p. 1-2.

(8) Burton, R. : op. cit., vol. I, p. 326-328.

علاقة العرب فى تلك المناطق بزنجبـــار :

ان كان العرب قد عاشوا فى تلك المناطق بعيدا عن حكومة زنجبار ، الا أنهم كانوا على اتصال بها ، خاضعين لها ، وكانت حكومة زنجبـــار تشاركهم تمويل مشروعاتهم ، ولقد كان النفوذ العربى واضحا عندما خضعت قبائل وسط القارة لحكومة زنجبار ، وان كان ذلك يختلف باختـــلاف قوة الوطنيين ، فكان العرب يعتبرون مسئولين عما يدور فى الداخل ، لدرجة أن الرحالة الأجانب كانوا يخصمون السلطان فى زنجبار فى دعاوى التعويض عندما كان يلم بهم أذى من الزنوج(٩) .

علاقة العرب بالزنوج فى وسط القارة :

التمس العرب فى تلك المناطق سياستين ، سياسة مسالمة الزنوج الذين رأوا فيهم استجابة للسلم ، فقام بينهم نظام التآخى بين زعمائهم وبين الرؤساء العرب ، وتبادل الطرفان الهدايا والزيارات ، وخاصة من دخل منهم الاسلام(١٠) .

وسياسة اللجوء الى السلاح اذا ما لمسوا فيهم غدرا أو خيانة ، الا أن الأمر بين هذا وذاك كان يتوقف على مدى ثقل الجالس على عرش زنجبار ضعيفا كان أم قويا(١١) .

علاقة العرب بالأجانب :

كان للعرب فى القرن التاسع عشر فضل السبق فى كشف عمق القارة الافريقية ، والوصول الى حوض الكونغو ، وجلب ثرواته ، مما لفت أنظار الأجانب والمستكشفين الى تلك البلاد التى كانت « أرضا بلا صاحب » ، فاستغلوا فى العرب جهودهم ومعلوماتهم وحمايتهم فى وصولهم الى الكونغو .

---

(٩) صلاح العقاد ، وجمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(10) Cameroon, R. : Across Africa, vol. I, London 1877, p. p. 332-334.

(11) Coupland, R. : The Exploitation of East Africa, London 1939, p. 67.

وعندما بدأ المستكشفون الأوروبيون يفكرون فى الولوج الى وسط القارة بمساعدة العرب ، ارتبطت جهودهم برجل عربى كان أول من دخل الى الكونغو بشكل منظم فى أعداد غفيرة من التجار والصيادين العرب فى شكل حملات تجارية عسكرية مخطط لها بأكثر نظام ممن سبقوه ، وكان هذا الرجل العربى هو « حميد المرجبى »(١٢) (تبوتيب) الذى كان له فضل الريادة فى الدخول العربى المنظم الى الكونغو ، كما كان له فضل ارشاد وحماية معظم المستكشفين الأوروبيين لتلك البلاد ، أمثال : بيرتون ، وديفيد لفنجستون ، وستانلى وغيرهم ، وهكذا بدأت العلاقة سلسلة تحققت من خلالها انجازات علمية كبيرة ، ثم ما لبث أن تعكرت عندما دخلت فيها الميول الاستعمارية كما سنرى .

التوسع العربى فى الكونغو أيام تيبوتيب :

قام هذا الرجل بثلاث رحلات الى الكونغو بهدف الاتجار فى العاج والرقيق ومحاصيل وسط القارة ، وجرى فى ركابه المستكشفون والطامعون فى الأرض والجاه من الأجانب ، وبعد ذلك استقر بعض الوقت لينشىء وجودا عربيا منظما فى داخل تلك البلاد ، ما لبث أن تعارض والأطماع الاستعمارية للبلجيكيين الذين كان له فضل ارشادهم وتأمين من أرسلوه من مستكشفين ومستعمرين ، فقامت الحروب بينه وبينهم ، انتهت بالقضاء على الوجود العربى وقيام دولة الكونغو الحرة ملكا خاصا للملك ليوبولد الثانى ملك البلجيك ، مخلفين بعدهم حضارة عربية سنعرض لها فى حينها .

وكانت رحلاته الثلاث فى سنوات ١٨٥٠ ، ١٨٦٢ ، ١٨٧٤ على التوالى ، كانت الثالثة هى أهمها ، فقد وطدت الوجود العربى فى الكونغو ، كما كانت بداية الصراع بين العرب والمستعمرين ، الذى انتهى بابعاد العرب وحلول البلجيك محلهم ، ولكن كمستعمرين .

الوجود البلجيكى فى الكونغو :

عندما دخل العرب فى موجتهم الثالثة مع تيبوتيب عام ١٨٧٤ كان يصاحبهم فيها الرحالة هنرى مورتون ستانلى ، وظل معهم طيلة سنوات

---

(١٢) لمزيد من التفاصيل عن المرجبى يرجع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ص ٣١ وما بعدها .

ثلاث حتى عام ١٨٧٧ ، وكان موفدا فى هذه المرة من قبل الملك ليوبولد الثانى ملك بلجيكا ، بقصد ظاهرى ، هو استكمال كشف حوض الكونغو وقمع تجارة الرقيق ، وسبب حقيقى هو تهيئة الكونغو ليكون ملكية خاصة للملك . وطرح الملك هذا الموضوع على الجمعية الجغرافية فى بروكسل عام ١٨٧٦(١٣) ، وقد أثار هذا الاجتماع كلا من فرنسا وانجلترا لتنازع المصالح الاستعمارية فى الشرق والوسط من أفريقيا ، وقد تركت انجلترا والدول الأوربية المستعمرة لشرق افريقيا منطقة الكونغو لليوبولد مقابل تركه شرق أفريقيا لها ، وقد استخدم الأخير أمواله الخاصة فى كشف الكونغو وتوطيد سلطانه هناك ، ليكون ملكا خالصا له(١٤) .

بدأ ليوبولد خطواته التنفيذية نحو تحقيق مشروعه باصدار أمره الى ستانلى بتأسيس المحطات البلجيكية على أفرع نهر الكونغو لتكون مناطق استراتيجية له مستقبلا ، مثل : فيفى ، وأوجوى ، وايسانجيلا ، ومانينجا ، ومسوتا وغيرها(١٥) ، بمساعدة العرب الذين لم يكونوا يعرفون ما سيترتب عليها ، تلك التى ثارت بشأنها تيارات سياسية بين الدول الاستعمارية المهتمة باستعمار أفريقيا ، والذى انتهى بالتئام مؤتمر برلين الشهير فى ١٨٨٤ — ١٨٨٥ ، والذى أخذ فيه الكونغو نسبة من قراراته بشأن حرية الملاحة والتجارة فيه ، وانبثق عنه اعتراف انجلترا بقيام دولة الكونغو الحرة ، وعلى ادارته بمعرفة الملك ليوبولد الثانى(١٦) .

---

(13) Bourne, F. : The other side of Emin Pacha reieif expedition, London 1891, p. 26.

(14) Woolf, L. . Empire and Commerce in Africa, London 1920, p. 305 &

شوقى الجمل : كشف افريقيا واستعمارها ، ص ٢٩٦ .

وعن تفاصيل هذا المشروع البلجيكى يرجع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ١١٨ وما بعدها .

(15) Ceullemans, R. P. · La question Arabe et Le Congo 1883-1892, Brussel 1958, p. 56-58.

(١٦) شوقى الجمل : المرجع السابق ، ص ص ٣٠١ — ٣٠٣ .

العلاقات العربية البلجيكية فى الكونغو فى هذه الفترة :

فى بداية الأمر لم تكن هناك علاقة مباشرة بين البلجيك والعرب ، وانما كانت من خلال ستانلى ، الذى كان حريصا على أن يسلك معهم سلوكا وديا، حتى ينال قسطا من تعاونهم وحمايتهم ، وحتى تتوطد الأمور للادارة الجديدة فى تلك الأصقاع النائية شديدة الوعورة ، وكان يوصى الضباط البلجيك — الذين تركهم فى حراسة المحطات البلجيكية هناك — بألا يظهروا أى غلظة للعرب ، الأمر الذى جعلهم يركنون اليهم ويحسنون به الظنون(١٧) !!

الا أنهم رغم هذا ، كانوا يحسون أن وراء هذه التنظيمات التى لم يعهدوها من قبل شيئا غريبا ربما يحدث ، الا أن هذا الاحساس لم يلبث أن طوته حسن نيتهم ، وحسن معاملة الضباط ، حتى انهم اصطحبوا تيبوتيب لاكتشاف بقية ما لم يكتشفوه من أرض الكونغو(١٨) . فضلا عن أنه استطاع بهم أن يعيد تنظيم الكونغو فى عام ١٨٨٣ ، حيث بدأت صفحة جديدة من العلاقات العربية البلجيكية ظاهرها الاحترام المتبادل بينهما ، كسبت منه دولة الكونغو كسبا اقتصاديا عوض الملك ما انفقه من قبل .

فقد أنزلت الدولة عدة بواخر فى فروع الكونغو ظنها العرب لتيسير نقل التجارة ، ولكنها وزعت السلاح على المحطات البلجيكية هناك ، وأعطت منه قدرا يسيرا هدايا للعرب الذين انحنوا — بكرمهم — أمامهم ، وأجزلوا لهم العطاء : عاجا وسلما وخدمات بشكل أكثر من ذى قبل .

ولعل العرب فى ذلك كانوا مدفوعين أيضا بسبب ضعف السلطان برغش سلطان زنجبار آنذاك ، الذى سيطر عليه الانجليز ، فضاعت هيبته، وانعكس ذلك على العرب فى الكونغو(١٩) .

---

(17) Warner, J. R. : A visit to Stanley Rear Guard, London 1889, p. 88-89.

(18) Masui, Th. : Guide de la section de l'Etate independant du Congo, Brusseles 1897, p. 29.

(١٩) يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

بعد أن التقط البلجيكيون انفاسهم فى الكونغو ، من الناحية الاقتصادية والأمنية ، وكذلك من الناحية السياسية مع الدول الأوروبية ، بدأوا يقلبون للعرب ظهر المجن ، بهدف التخلص منهم كآخر مناوىء لهم هناك .

وفى تلك الفترة أيضا كان العرب هناك قد خلدوا الى الهدوء ، يروجون لتجارتهم ، ويسيرون قوافلهم ، زرعوا الأرض ، ونشروا أموالهم فى أمان حتى مشاركة للاجانب انفسهم ، جاهلين ما بدأ البلجيكيون يحيكونه لهم فى الكونغو وفى أوربا ، والمحافل الدولية ، بهدف تشويه سمعتهم واستنفار القوى ضدهم ، حتى اذا ما أتت الساعة لا يجدون من ولى ولا نصير .

وفعلا تركوا المبشرين والرحالة يكتبون عن تجارتهم فى الرقيق ، فمسخوا صورهم أمام العالم ، عندما وصفوهم وهم يسوقون الرقيق أمامهم ، فى شكل قطار حزين الى الساحل ، مكبلة رقابهم فى أصفاد من حديد ، أو افرع غفل من الأشجار ، واستجابت أوربا فى تلك الفترة لما كتبوا ، فسالت الأقلام والأموال على من يوقف هذا النزيف الآدمى الذى تلطخت به يد العرب(٢٠) .

من أجل هذا كانت مجموعات مناهضة الوجود العربى فى الكونغو من عناصر أوربية بالاضافة الى البلجيك ، وتفرقوا فى شرق القارة ووسطها، ليحدقوا بهذا الخطر ، وكان نصيب البلجيك مناهضة عرب الكونغو ، بعد أن أقر الجميع على ضرورة مناهضتهم هناك .

فضلا عن استفادة البلجيكيين من ربط انجلترا بين ما يدور فى السودان بين الانجليز والمهديين ، وبين ما يمكن أن يماثله فى الكونغو ، وبذلوا كل الجهود فى القضاء عليهم(٢١) .

---

(20) Coupland, R. The Exploitation of East Africa, p. 138-139.

(٢١) الشاطر بصيلى عبد الجليل : تيبوتيب — مجلة نهضة افريقيا ، العدد الأول ، السنة الأولى ١٩٥٧ ، ص ١٧ ، ١٨ .

سياسة القضاء على العرب فى الكونغو(٢٢) :

بدأت سياسة الغدر بالعرب منذ عام ١٨٨٤ ، عندما غير ستانلى من أسلوب تعامله مع العرب الى العكس ، فبدأ يستولى على تجارة العاج ويحتكرها ، ويكره التجار العرب على الاتجاه بما تبقى لهم من عاج وسلع أخرى الى الساحل الغربى لأفريقيا وليس كسابق عهدهم الى الشرق منها ، وذلك بهدف احلال القطيعة بينهم وبين بنى جلدتهم فى زنجبار ، فيخسر السلطان هنا كأمامه بسبب انقطاع المدد المالى عنه .

فضلا عن اتباعه سياسة الحصول على توقيعات من العرب والزنوج — فى فترة غياب تيبوتيب فى الساحل الشرقى — بالتنازل عن حرياتهم للبلجيك ، والعيش تحت سيطرة الملك ليوبولد(٢٣) .

فلما عاد تيبوتيب خالف كل ما وقعوا عليه ، وبدأ يجمع العرب حوله للدخول فى معركة مع البلجيك ، اقتصاديا بمنع التعامل التجارى معهم، وحربيا باللجوء الى امتشاق الحسام ، خاصة وأن جون كيرك — القنصل الانجليزى فى زنجبار — كان يدفع السلطان الى توسيع نفوذه فى وسط القارة ، وأوعز اليه بمساندة تيبوتيب والعرب فى منطقة مساقط الكونغو ، وكان فى هذا يهدف الى استخدام العرب كمخلب قط يوقف به أى تقدم أوربى وسط افريقيا ، ريثما تحين الفرصة ، وتهبط انجلترا من السودان اليه(٢٤) .

أمام هذا ، وازاء عدم ثقتهم بعد فى الزنوج ، لجأ البلجيكيون الى مهادنة العرب من جهة ، ومحاولة اثارة زعمائهم بعضهم على بعض لشق صفوفهم ، وفعلا ساد الهدوء العلاقات العربية البلجيكية فترة عام ١٨٨٥ ،

---

(٢٢) مرت مسألة الوجود البلجيكى فى الكونغو بمراحل عديدة حتى خلصت ملكا خاصا للملك ليوبولد ، وذلك فى دهاليز السياسة والحكومات البريطانية والبلجيكية والألمانية وغيرها ممن كانت لهم مصالحهم فى شرق ووسط افريقيا ، يمكن الرجوع اليها فى رسالة يواقيم رزق مرقص المشار اليها ، حيث أننا ركزنا البحث على العرب وما قدموه وما نالهم فى الكونغو .

(٢٣) الشاطر بصيلى : المرجع السابق ، ص ١٨ .

(24) Ceulemans, R. : op. cit., p. 65.

حيث بدأ الاعلام الأوربى المتعاطف مع البلجيك ينفر الراى العام ضد العرب، فنقلوا عن الصحافة البلجيكية معلومات تفيد بأن العرب مستمرون فى غزوهم لأقاليم الكونغو العليا ، وان (عصاباتهم) تهدد المحطات البلجيكية هناك .

كما لجأت الصحافة هذه الى الربط بين الوجود العربى فى الكونغو وبين حركة المهدى فى السودان ، وعدت تيبوتيب من اتباعه ، وأبرزت صحف انجلترا ثأر مقتل غوردون لتستدر عواطف أوربا ضد العرب . وحتى القنصل الامريكى فى زنجبار أذاع تقريرا حول تسيير جنس مسلم من داخل افريقيا الى الشمال والى الساحل الغربى ، وان الأوروبيين فى الكونغو فى خطر(٢٥) .

واستغل ليوبولد هذا الموقف وأرسل الرجال والسلاح الى هنـاك للدخول فى معركة فاصلة مع العرب ، الذين كانوا بقيادة « سـيفو » ابن تيبوتيب نظرا لغيابه فى الساحل الشرقى ، وكان البلجيك بقيادة دين Dean وهو انجليزى الأصل ، التحق كقائد للقوات البلجيكية المرابطة عند ستانلى فولز فى مواجهة المنطقة العربية ، وبدأ دين يتلمس الأخطاء للعرب ، حتى بدأت الحرب بينهما فى يولية عام ١٨٨٦ ، وكان مع العرب — فى تلك المعارك — عدد غفير من زنوج المانييما . وبوصول تيبوتيب ، اشتد ساعد العرب الذين استطاعوا التغلب على البلجيك ومن معهم من المرتزقة ، وقتل دين ، واستعادوا كثيرا من الأراضى التى كانت تحت أيديهم .

وازاء هذا النصر ، وما اعترى القوات البلجيكية من الضعف والخوف ، وتوجس ليوبولد من أن تكون انجلترا وراء تيبوتيب لتستخدمه مخلب قط ضده فى الكونغو ، لتضيع عليه فرصة تملكه للكونغو الحرة ، وما أصابه من عسر مالى بعدما أنفقه فيها ، لجأ الى مهادنة العرب مرة أخرى ، بل وعرض على تيبوتيب أن يكون حاكما من قبله على منطقة ستانلى فولز ، وقائدا للعرب الذين استطوفوا تلك المناطق ، ومنفذا لسياسته فى الكونغو الحرة(٢٦) ، وكان ذلك عام ١٨٨٧ .

---

(25) Slade, R. : King Leapold's Congo, p. 90-92.

(٢٦) عن تفاصيل هذه المعارك ، يرجع الى : يواقيم رزق : المرجـع السابق ، ص ١٦١ وما بعدها .

الا أن تعيينه لم يأت بالثمر المطلوب ، لأنه اغضب العرب ، بسببه تبعيته لليوبولد ، وتوجس الانجليز منه خيفة ، فأرادوا أن يقضوا عليه بجانب ضعف السلطان الذى لم يستطع حمايته .

ازاء هذا قامت عدة معارك من جديد بين البلجيكيين والعرب ، الثائرين لكرامتهم ، وحفاظا على وجودهم بعد أن استطاع البلجيك شق صفوفهم ، وقسموهم بعضهم على بعض ، استمرت حتى عام ١٨٨٩ خسروا فيها الكثير ، بينما حصلت دولة الكونغو الحرة على مزيد من التوسعات .

وبعد أن ساد الهدوء الطرفين قرابة العام ، بدات الحملات البلجيكية من جديد للقضاء على ما بقى من قوة العرب مثل : حملة هوديستر A. Hodister فى وسط الكونغو عام ١٨٩١ ،وحملة دانيس Dahnis ١٨٩٣ ، وحملة فان كركهوفن ، وانتهى امرهم الى حرب ضروس فى عام ١٨٩٤ ضد العرب ، بقيادة دانيس مرة اخرى ، استمرت لمدة عام ، كانت القاضية على الوجود العربى فى الكونغو . سالت فيها دماء الآلاف منهم ، وتشتت الأسر ، وأسر القادة منهم ، وسيقوا الى أوروبا صحبة دانيس ليتأكد من عدم عودتهم مرة أخرى ، أما تيبوتيب فعاد هزيما الى زنجبار ، يجرجر أذيال المرض ، بعد فتل ابنه وقواده ، وذهب ماله وعتاده . واذ رجع ليجد الانجليز متربصين به الدوائر ، حيث لفقوا له تهمة وضع بسببها فى السجن الى أن مات سنة ١٩٠٦ .

اما ليوبولد فقد خلصت له دولة الكونغو الحرة ليعمل فيها الزنوج ومن بقى من آحاد العرب « كأجراء » بعد أن كانوا سادة لسنين عددا مخلفين حضارة عظيمة استفاد منها البلجيك والزنوج من بعدهم(٢٧) .

وضع العرب فى الكونغو فى تلك الفترة :

ترددت الآراء حول وضع العرب فى الكونغو ، فوصفهم البعض بالمستعمرين ، لأنهم وصلوا جماعات ، ثم استقروا هناك مستولين على اقتصاد تلك البلاد ، كما اشتركوا فى تشكيل سياستها وتدخلوا فى

---

(٢٧) يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ٢٠١ — ٢٠٦ .

أمورها(٢٨) ووصفهم البعض بأنهم لم يكونوا كذلك ، لأن منهم من كانوا يعملون لدى سادة من الوطنيين ، وعاشوا سنوات كانت نتيجتها جيل من المولدين ، وكانت تحدوهم رغبة فاترة فى العودة الى الساحل ، ومنهم من اثرى ثراء كبيرا جعل رغبته فى العودة معدومة تماما(٢٩) .

ولكن من الأجانب من فصلوا فى هذا الوضع ، فقالوا بأنهم دخلوا الكونغو أول الأمر فرادى ، أو جماعات غير منظمة ، كتلك الشركات التى دخلت بلادا بقصد التخطيط للاستعمار(٣٠) .

ويقول جونستون — الكاتب الاستعمارى — بأن العرب لم يقوموا هناك بأية محاولة من شأنها اظهارهم بمظهر من أراد الاستعمار أو تأسيس الامبراطوريات ، وانما كانوا مغامرين من أرستقراطى الساحل ، يهدفون — مثل الهنود — الى جمع الثروات بسرعة والعودة الى الساحل(٣١) .

كما أنهم لم يغيروا من طبيعة الأرض أو السكان ، بل تركوا السكان الأصليين على ما هم عليه حتى من دخل منهم الاسلام ، وهم اذا كانوا قد قسوا أحيانا على الزنوج الوطنيين ، فانما كان ذلك لكى يحفظوا لهم مركزا ويؤمنوا تجارتهم وسط تلك الأدغال(٣٢) .

كما يشهد بيرتون صراحة بأن عرب الأونيامويزى لم يكونوا مستعمرين أو يبغون الاستقرار ، بل كانوا دائمى التنقل ، وكانت أمنيتهم دائما العودة الى مقرهم فى الساحل(٣٣) .

---

(٢٨) على ابراهيم عبده : التنافس الدولى فى أعالى النيل ، القاهرة ، ص ٣٧ .

(29) Jameson, J. : The story of the Rear Column of Emin Pacha relief Expedition, p. 413.

Oliver, R. : The Missionary Factor, p. 98.

(30) Ingham, K. : A history of East Africa, New York 1967, p. 84.

(31) Oliver, R. : The Missionary factor, p. 98.

(٣٢) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم : مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(33) Burton, R. : op. cit., vol. I, p. 366.

أهم آثار العرب فى الكونغـــو :

ترك العرب فى الكونغـــو آثارا حضارية يتحـــاكى بها الكونغوليون والمنصفون من الدارسين الغربيين ، رغم ما صورهم به بعضهم من بشـــاعة فى علاقتهم بالوطنين آنذاك .

فالعرب هناك لم يعيشوا فى عزلة ، ولم يكونوا يضمرون استعمارا وهم بعد التجار المحتاجون الى السلام والأمن فى التعامل ، والتعاون مـــع الأهالى(٣٤) ، ومن ثم كانت هناك علاقات بينهم وبين الوطنيين ، افرزت مدنا وثقافة واقتصادا متطورا بالنسبة لمـــا كان موجودا هناك .

ففى المجـــال الثقافى :

أسدى العرب فى وجودهم فى الكونغو أكبر العطايا التى لـــم تكن لتعطى لمثل تلك الجهات ، ككشف الطرق والأنهار والقبائل ، وجمع المعلومات التى قدموها ببساطة الى المستكشفين الأجانب ، مثل : كاميرون وستانلى وديفيد لفنجستون وغيرهم(٣٥) ، واقترنت الكشوف باسمائهم مدون هؤلاء الجنود المجهولين ، فلم يكن يجرؤ أحدهم على الدلوف الى جوف القـــارة المظلمة دون تأمين العرب له ، فهم الذين أمدوهم — الى جانب الأمن — بالحمالين والمعلومات والتراجمة ، ومواد التموين المختلفة ووسائل الانتقال كالدواب والقوارب(٣٦) . كما كشف العرب الطرق التى ســـــلكها هؤلاء المستكشفون وساروا هم فى اثرهم(٣٧) . لدرجة ان اعترف بعضهم بذلك صراحة ، فهذا لفنجستون يعترف بكل هذا ويضيف ان تيبوتيب أنقذه من الوقوع فى قبضة احدى القبائل الهمجية ، وسهل له أمر رحلته لكشف بحيرة بنجويلو(٣٨) .

---

(٣٤) يواقيم رزق مرقص : الاستعمار البلجيكى وأثره على الوجود العربى فى الكونغو ، بحث ضمن كتاب العلاقات العربية فى الكونغو ، دراسة تاريخية للاثار السلبية للاستعمار، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٧ ، ص ٢٢٧ .

(٣٥) للمزيد من التفاصيل فى هذا المجال يمكن الرجوع الى : يواقيـــم رزق مرقص : حميد المرجبى والوجود العربى فى الكونغو ، من ص ٨٨ .

(36) Ceulemans, R. : op. cit., p. 40.

(37) Hinde, S. L. : The fall of the Congo Arabs, London 1897, p. 4.

(38) Oliver, R. : The Missionary factor, p. 41.

وعندما تقدم بيرتون الى الجمعية الجغرافية يطلب أن يذهب لاكتشاف بحر أوجيجى والذى أسماه بعد اكتشافه « بحيرة تنجانيقا » قدم المعلومات التى استقاها من العرب ، وفعلا قام بالرحلة فى ١٨٥٦ ، ثم ان كاميرون اعترف بكرمهم ، وحسن ضيافتهم ، فكرم العرب ومعلوماتهم وقوتهم كانت كلها أمورا دخل الكشف فى أعقابها والتفتت أنظار أوروبا الى الكونغو بسببها.

العرب والرقيق :

تحمل العرب بعموما تبعة تفشى تجارة الرقيق ، وظهروا هم فى الصورة، رغم مشاركة الدول الأوربية كالبرتغال فيها بتشجيع أوربا وأمريكا لاستخدام الرقيق فى الزراعة هناك .

وشهد كاميرون فى تقرير له عام ١٨٧٦ قدمه للجمعية الجغرافية ، بأن هذه الظاهرة كانت تسبق الوجود العربى فى أواسط القارة ، وأن الرؤساء الافريقيين هم الذين كانوا يقدمون بنى جلدتهم كسلعة للاتجار فيها ، وأن البرتغاليين هم الذين كانوا وكلاء تصديرهم للخارج، وان العرب اشتروهم لخدمة المنازل أو فلاحة الأرض(٣٩) . الا انه من جماع وضع الرقيق تبين أن العرب قد أسهموا فى هذه التجارة أمام بريق الكسب الكبير الذى أبرزه لهم الأوربيون الذين عادوا ونددوا بهم(٤٠) . ويشهد الرحالة الذين عايشوا هذا الوضع بأن العرب قدروا فى الرقيق مهارتهم فنالوا على يديهم قسطا من التعليم ، وقدرا من الفنون والحرف والصناعات اليدوية ، والتمرس على التجارة(٤١) . حتى البنات الصغيرات من الاماء اهتم العرب بهن ، فعلموهن القراءة والكتابة فى بيوتهم ، ودخلن الاسلام ، وحفظن كثيرا من القرآن الكريم(٤٢) .

---

(39) Elton, J. F. : Travels and researches among the lakes, London 1879, p. 3.

(٤٠) جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق افريقيا، القاهرة، ص٦٦.

(41) Stanley, H. M. : The Congo and the founding of its free State, vol 2, p. 360-361.

(42) Waller, H. : The last journals of D. Levingstone in Central Africa, London 1889, p. 237.

وقد تاثر الأهالى بمعاملة العرب الطيبة ، عندما حتمت عليهم الظروف البقاء لسنوات بينهم ، واقلعوا عن عادات سيئة كانوا يتصفون بها ، كأكل لحوم البشر ، والقتل للتسلى ، ودربوهم على أعمال الحراسة ، واخضعوهم لما يشبه النظم العسكرية(٤٣) .

المدن العربية فى شرق الكونغو :

ان الظروف التى حكمت تنقل العرب وسط افريقيا حتمت عليهم الاستقرار فى تجمعات أصبحت مدنا فيما بعد ، ومراكز احتكاكات حضارية بين العرب والكونغولويين ، لدرجة أن دخل بعضهم انفصالا للعرب مثل نجونجولوتيثا وبانيا — موتومبو ، ولوبنجو من زعماء الكونغو آنذاك ، وحاكوا العرب فى تخطيط مدنهم وعماراتهم ، تلك النظم السواحيلية التى مازالت تعتبر تراثا لتلك الحقبة(٤٤) .

ومن أهم هذه المدن :

نيانجوى Nyangwe :

كانت أهم المدن العربية فى الكونغو ، جنوبى مانييما ، شرق خط طول ١٦ر٢٦ درجة ، على ربوة عالية ، يحدوها ريف مفتوح ، ضمت أكثر من ثلاثمائة بيت عربى عام ١٨٦٨ بعائلاتهم وعبيدهم وحيواناتهم ، وترجع أهميتها الى جمال موقعها وطيب هوائها ، كما كانت ملتقى عدة طرق آتية من الساحلين الشرقى والغربى لأفريقيا ، فكانت سوقا للتجار العرب والبرتغاليين ، سميت (كينوكو) بلغة البانتو ، عرضت فيها السلع كالعاج والودع والخرز وأسلاك الحديد والنحاس ، والخضر والحبوب والرقيق والحيوانات والطيور(٤٥) .

---

(43) Jameson : op. cit., p. 242.

(٤٤) صلاح العقاد ، جمال زكريا قاسم ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٤٥) للمزيد من الوصف يرجع الى :

Stanley, H. M. : Through the Dark Continent, vol 2, p. 117 & Burton, H. The lake regions p. 333.

كاســـونجو Kasongo :

تقع جنوبى نيانجوى ، سكنها عام ١٨٦٨ حوالى ٣٠.٠٠٠ أغلبهم من العرب أزيلت من حولها أشجار الغابة العذراء ، ليزرع قصب السكر والذرة والارز والفواكه ، واعتمدوا فيها على أنفسهم(٤٦) .

كيبونجى Kibonge :

وهى مدينة عربية كبيرة ، تحت ادارة رجل كان اسمه كيمونجى ، وكان يعمل وكيلا لرجل عربى « سعيد بن عبيدى » من سكان نيانجوى .

كاســـوكو Kasuku :

وهى قرية عربية يقسمها نهر كاسوكو ، ورغم صغرها نســـبيا عن سابقاتها ، الا أن التأثير العربى كان ظاهرا فيها .

ريبـــا ريبـــا Riba Riba :

كانت قرية عربية كبيرة ، تحت امرة عربى هو « محمد بن حاميس » ، امتلك مساحات واسعة فى الشاطىء الغربى لنهر الكونغو .

كابانجـــا kabanga :

قرية وطنية كبيرة ، كانت لها سوق كبير ، كما كانت مركزا من مراكز التجارة العربية شرقى حوض الكونغو(٤٧) .

وهكذا كانت المدن العربية بمثابة محطات لتجميع خيرات الكونغو ، واماكن احتكاك حضارى ظهرت ثمارها فى :

الدين والثقـــة :

لم يمارس العرب فى الكونغو ضغطا على الوطنيين ، ولم يفرضوا عليهم حضارتهم ، كما لم يكن نشر الدين هدفهـــم ، لأنهم فى رحلتهم الى الكونغو أو حلهم هناك ، كان للتجارة بالدرجة الأولى ، الا أنهم عندما كسبوا

---

(46) Lewis, I. . : Islam in Tropical Africa, London 1969, p. 176.

(47) Jameson : op. cit., p. 454.

الأهالى الى جانبهم كان على حساب الأوربيين الذين بذلوا جهدا كبيرا فى التبشير ، الذى كان الاستعمار فى ركابه ، وقارن السود بين كبرياء الأبيض وجفاف معاملته واسترقاقه لهم ، وبين من عايشوهم يدا بيد فى العمل والطعام .

ولقد فشل الأوربيون اكثر من مرة فى نشر المسيحية ، لأن الوطنيين احسوا بأن مراكزهم انما كانت شراكا لاصطياد الرقيق ، بينما كانت دوافعهم للدخول فى الاسلام :

أولا : ما رأوا من مكانة العرب المسلمين ، وتفوقهم عنهم فى المنعة ، ورغم هذا لم يكونوا متكبرين عليهم(٤٨) .

ثانيا : لم ينكر الاسلام عليهم بعض عاداتهم أو تقاليدهم الاجتماعية مثل تعدد الزوجات .

ثالثا : كان فى الاسلام عتق لهم ، فسارعوا الى الدخول فيه ، لما عرفوا أن المسلم لا يسترق(٤٩) ، كما لم يكن اسلام العبيد فرض أو ابعاد له عن تقاليده .

ومن أهم آثار انتشار الاسلام فى الكونغو كانت اللغة العربية ، فهى لغة القرآن والصلاة ، كما انتقلت اللغة السواحيلية ايضا الى هناك ، ويقرر لورد متمور — الذى زار بلاد اروبمى فى شرق الكونغو عام ١٩٠٥ — انه وجد زعماءهم يقرأون القرآن ويتكلمون اللغة العربية(٥٠) .

وقد بلغ من اعجابهم بالعرب المسلمين أن قلدوهم فى ملبسهم ، فلم يعودوا يرضون بالعرى ، وانما ارتدوا الملابس البيضاء الفضفاضة الطويلة ،

---

(٤٨) حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٤ — ٣٦ .

(49) Lewis, I. M. : op. cit., p. p. 187-255.

(50) Groves, C. P. : The planting of Christianity in Africa, vol. 3, p. 134.

ووضعوا عمامة على رءوسهم(٥١) . ومارسوا معهم طقوسهم الدينية ، كسجودهم فى الصلاة ، واحتفالاتهم بالأعياد الاسلامية ، واغتسلوا معهم فى وضوئهم(٥٢) حتى صاموا معهم شهر رمضان ، وان كان على غير فهم كامل ، ولكن لأن المسلمون يؤمنون بالغيبات ، وهم لهم فى ميثولوجياتهم كذلك ، دهشوا للاذكار التى اقامها المسلمون ، فشاركوهم اياها مستعملين طبولهم ، مرددين معهم « لا اله الا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم »(٥٣) .

وان الذين دخلوا منهم الاسلام ، دخلوه على المذهب الشافعى ، على نهج عرب الشرق الذين كانوا شافعيين(٥٤) .

التعليم :

كان معظم العرب الذين رحلوا الى الكونغو يعرفون القراءة والكتابة والحساب ، مما تستلزمه حياتهم التجارية ، ثم انهم كانوا يحفظون القرآن ، ويقرأون كتب الدين ، ولهذا اهتموا فى مهجرهم بتعليم صغارهم وصغار الزنوج ، وكانت العملية التعليمية الزامية . وصرفوا عليها الكثير حتى لا تنقطع صلة الأطفال العرب الروحية بأصلهم العربى الاسلامى(٥٥) .

وقد شاركهم أبناء الزنوج كل هذا ، بل كانوا يرسلون أبناء زعماء الزنوج الى زنجبار ليستكملوا تعليمهم هناك(٥٦) . وبقدر ما اعتنوا بالتعليم النظرى كأساس ، عنوا بتعليم الأولاد زنوجا وعربا ، حرفا منها يرتزقون مثل: الفلاحة ، والبناء ، وصناعة الطوب ، والتجارة ، وصناعة السلاح . بل

---

(51) Slade, R. : op. cit., p. 85.

(52) Rene, L. : Political awaking in the Belgian Congo, Los Angeles 1954, op. 30.

(53) Waller, H. : op. cit., p. 275.

(54) March, Z. : East Afri a through Contemprory Records, Kamb. 1961. p. 78.

(55) Rene, L. : op. cit., p. 233.

(56) Waller, H : op. cit., p 281.

أزاد العرب من اهتمامهم بهذا النوع من التعليم عندما واجهوا ضغط الارساليات الأوربية ، ففضلا عن تعليمهم الحرب — كما ذكرنا — علموهم التجارة والترجمة ، وجعلوا من رقيق المنازل خدما — رفعا لشأنهم — مما كان له أثره فى انتشار الاسلام والتمسك به دينا ودنيا ، ومهد لادخال بعثات اسلامية حقيقية ، مثل البعثة الأحمدية عام ١٩٣٥ الى تنجانيقا وطابورا(٥٧) .

كان هذا التطبيق للدين الاسلامى حافزا للزنوج أن يدخلوه افواجا ، بعكس ما كانوا يرونه فى الأوروبيين الذين ما كانوا يطبقون ما يعلمونهم اياه ، فضلا عن أن الذين دخلوا المسيحية وتعلموا على يد الارساليات ، أصبحوا لا يصلحون للحياة الافريقية ، بل ودون الصلاحية للحياة الأوربية ، فتمزق المجتمع الافريقى على أيدى الارساليات ، بعكس العرب الذين نسجوا أواصر المجتمع الافريقى فى الكونغو(٥٨) .

العمارة العربية فى الكونغو :

عندما هاجر العرب من بلادهم فى شبه الجزيرة العربية الى ساحل أفريقيا الشرقى حملوا معهم فنونهم المعمارية ، وكذلك فعلوا عندما ضربوا فى قلب القارة السوداء ، فحملوا معهم الأبواب المخروطة ، والأعمدة ذات الرؤوس والزخارف العربية التى زينوا بها سقوفهم ، والمعادن والنقوش التى ركبت على النوافذ والأبواب(٥٩) ، وهذا ما لفت أنظار الرحالة الأجانب ، عندما لم يرتضوا بسكنى الاكواخ كالزنوج .

فالقرية العربية كانت مجموعة من البنايات تتوسط العديد من أكواخ الزنوج الذين تجمعوا فى سكناهم حول العرب حبا فيهم ، والتماسا للامن لديهم ، أما القرية فكان محيطها يتكون من ظهور المنازل المغطاة بالملاط ،

---

(57) March, Z. : op. cit., p. 78.

(٥٨) حسن محمود : المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٥٩) يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ٢٨٢ .

وحولها حظائر الحيوانات ، وأكواخ الزنوج ، ووسطها منزل الحاكم(٦٠) .

وفى هذا لم ينس العرب أن ينقلوا الى الكونغو أقدس مبانيهم وهى المساجد فقد غصت أعالى الكونغو بالمساجد الجميلة التى كانت فيها أروقة للدراسة الدينية والعلمية(٦١) .

آثار العرب الاقتصادية فى الكونغـــو :

استغل العرب ثروات الكونغو فى أكثر من مجال ، فعندما كان عليهم الانتظار هناك ريثما تعود اليهم القوافل بعد عام أو اثنين ، اتجهـــوا الى استثمار هذا الوقت ، فكانت الزراعة أول ما فكروا فيه ، فطهروا الأرض من الأعشاب اعدادا لها للزراعة، خصوصا وان الماء هناك وفير، واستخدموا الزنوج فى ذلك ، مقابل الحصول على قوت يومهم ، فتعلموا منهم الزراعة والاستقرار ، الرعى والزراعة المتنقلة(٦٢) ، فأحدثوا ثورة زراعية هناك ، فبعد الاعتماد على الزيتيات كالنخيل أو ثمار الغابات ، أدخلوا غلات جديدة مما كان له أكبر الأثر حتى بعد خروجهم من الكونغو ، مثل القمح والقطن وقصب السكر ، وفواكه مثل الليمون والجوافة وغير ذلك(٦٣) .

وقد خصصوا أماكن معينة لمحاصيل بعينها ، ففى منطقة أونيانيمبى زرعوا الباباز ، والمانجو ، والليمون ، والرمان ، والقشطة ، والليمون ، والليمون الحلو، والقمح والأرز، وفى أوجيجى زرعوا الباباز والليمون والرمان فقط ، كما حسنوا زراعة الموز الذى كان أصيلا هناك فى كاسونجو(٦٤) .

كما أدخلوا زراعات النيلة والقنب ، ومن الحيوان البط والحمام والقطط، وسلالات من الحمير والبغال .

---

(60) Richard, Ch. : East African Explorers, London 1960, p. 115.

ولوصف المنازل العربية من الداخل يمكن الرجوع الى : يواقيم رزق : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ — ٢٨٥ .

(61) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 366-371.

(62) Salde, R. : op. cit., p. 87.

(63) Rlne, L. : op. cit., p. 30.

(64) Stanley, H. M. : Through the dark Cont. vol. 2, p. 123

عنوا بالقطن الذى جادت زراعته شأنه شأن الأرز والذرة ، مستغلين وفرة المياه واتساع الأرض الخصبة ، فجادت زراعته فى الفترة ما بين ١٨٨٥ — ١٨٩٠ عندما أجبر العرب الزنوج على زراعة هذه المحاصيل ، حتى أصبح الأرز عصب غذاء الزنوج بعد ذلك(٦٥) .

ولقد أجمع المستكشفون الأجانب الذين شاهدوا هذا التقدم الزراعى على أنه بعث عربى للكونغو ، كما اعترف بذلك موظفو حكومة الكونغو الحرة بعد عام ١٨٩٣ فى تقاريرهم بهذا ، وأصدرت الحكومة أوامرها بالحفاظ على هذه النظم والمزارع العربية(٦٦) .

التعدين والصناعة :

لما عرف العرب غنى الكونغو بمعادنه كالحديد والنحاس والفضة والذهب والفحم فى غرب بحيرة تنجانيقا نقبوا عنه واستخرجوا الذهب من وديان الأنهار ، وباعوه فى أسواق مانيانجا ، كما أسهم العرب فى صناعات يدوية كبيرة ، مستخدمين الزنوج معهم كصناعات : الحبال والسلاسل ، الحصير ، النسيج . كما طوروا صناعات استخراج الزيوت من الخروع ونخيل الزيت ، لدرجة أن الأوروبيين استغلوا هذا التطوير فيما بعد فى عملياتهم الصناعية المتقدمة(٦٧) .

أدخل العرب صناعات لم يكن للزنوج فى الكونغو عهد بها : كصناعة الصابون ، وصنعوه من بوتاس صناعى ، أخذوه من حرق سبائط الموز وأوراقه وخلطه بزيت النخيل(٦٨) .

وراجت حياة الحرفيين كالحدادين والبنائين والنجارين والخياطين والفخارين وصناع الحبال ، وارتفعت أجورهم ، وذلك نتيجة نشاط حركة

---

(65) Mirack, M. P. : Agriculture in Congo Basin, London 1987. p. 233.

(66) Oliver, R. : History of East Africa, vol. 1, p. 272.

(67) Proceeding of the R. G. Coc. vol. 20, session 70, p. 323.

(68) Stanley, H. M. : The Congo and the founding of its free state vol. 2, p. 357.

التعمير والبناء والتجارة . كما انتعشت صناعة الأسلحة النارية واصلاحها ، وصناعة المذاليج والأقفال والسرج ، كما اشتهروا بتلوين الفخار(٦٩) .

التجـــارة والمـــال :

لم تكن هناك تجارة بالمعنى المعروف قبل وصول العرب الى الكونغو ، ولكن بدخولهم نشطت الأعمال التجارية نتيجة استغلال المجارى المائيـة التى ربطت بين الكونغو والزمبيزى ، كذلك شق الطرق وقطع الغابات ، وتأمين المرور خلالها(٧٠) .

وكان للعرب نظام للنقل النهرى بواسطة القوارب على صفحة نهـر اللوالابا ، استطاعوا به ربط كل قبائل المنطقة وأسواقها(٧١) .

كان من نتيجة ذلك أن كثر الطلب على منتجات الاقليـم ، وارتفعت الأسعار ، وقد وصف الرحالة أسواقهم هناك التى جلب اليها العرب منتجات الشرق العربى من بلح وســجاجيد وآلىء ومجوهرات وملح وغـير ذلك ليتبادلوه بالعاج ، والرقيق(٧٢) ، وكان من أشهر الأسواق التى دعمها الوجود العربى فى الكونغو : أسواق ، نيانجوى ، وأونيانيمبى ، وكاسونجو .

كما نظم العرب مواعيد التئام هذه الأسواق طبقا لمواعيد الحصـاد وظروف المناخ ، وتوالد الحيوانات ، ومواعيـد وصول أفواج الرقيـق والعاج(٧٣) .

وكان من نتيجة هذا استقرار العرب فى مستوطنات فى مراكز التقاء الطرق ، والأماكن التى يسهل على الوطنيين التجمع فيها، وكونوا ارستقراطية عربية وسط القارة تلاهم رؤساء القبائل من الزنوج كتابعين لهم ، معترفين بفضلهم ، فسكنوا حولهم(٧٤) .

---

(69) Hinde, S. L. : op. cit., p. 201.
(70) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 328-329.
(71) Slade, R. : op. cit., p. 116.
(72) Hamilton, G. : op. cit., p. 162.
(73) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 333.
(74) Miracl, M. P. : op. cit., p. 332.

اما عن العملة ، فكانت تسمى ريبا Riba أو أجزاء صغيرة من القماش المصنوع من الألياف والأعشاب والقواقع ، وكانت المقايضة هى أساس التعامل آنذاك(٧٥) .

الطب :

اعتمد العرب على الأطباء واستعمال العقاقير والنباتات الطبية ، وقاوموا الشعوذة ، وطاردوا الأطباء السحرة Witch Doctors ، الذين انزووا بعيدا عن قراهم ، وكان الزنوج ميسورى الحال ، يعتمدون فى علاجهم على الأطباء العرب ، الذين ارتحلوا فى ركاب العرب الداخلين الى قلب الكونغو(٧٦) ، ومن الطريف أن العرب فى وجودهم فى الكونغو احتفظوا بالابر الطبية والقطن الطبى والخيوط والأدوية التى كان الرحالة الأجانب يحضرونها معهم ، ويحصلون هم عليها منهم(٧٧) . ويقول بيرتون انه كان لديهم اطباء مهرة عالجوه هو من مرضه مثل سناى بن عامر(٧٨) ، كما اشتهر الطبيب محمد بن حلفان فى أوجيجى(٧٩) .

كما احتاطوا لأنفسهم من العدوى بالمادة المأخوذة من المرض نفسه ، كالجدرى ، وعزلوا المرضى به حتى لا يتفشى المرض بين الأصحاء منهم(٨٠) ، اذ كان الجدرى من الأمراض الفتاكة ، التى قضت على الكثير من الأهالى ، كما حدث فى عام ١٨٨٧ فى سانكورو(٨١) .

حياة العرب العامة فى الكونغو واثرها على الزنوج :

عاش العرب فى الكونغو عيشة رغدة ، وخالطهم الزنوج وشاركوهم حياتهم وتأثروا بهم وبسلوكهم ومعاملتهم ومأكلهم وملبسهم ، حتى تأثبث

---

(75) Jamlson, J. : op. cit., p. 252.

(76) Hamilton, G. : op. cit., p. 162.

(77) Stanley, H. M. : The Congo and the founding, p. 160.

(78) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 280.

(79) James, B. : op. cit., p. 75.

(80) Lewis, I. M. : op. cit., p. 178.

(81) Stevenson : op. cit., p. 7.

المنازل ، ولكم تعجب الأوروبيون انفسهم من ذلك ، اذ شاهدوا أسرة نومهم ذات الخشب المحفور والمنقوش ، وفرشت بالحرير والستان ، والناموسيات على الشبابيك ، واستعملوا الشموع والقناديل فى الاضاءة ، واقتنوا الكئوس الفضية والبللورية(٨٢) .

كانت زياراتهم واجتماعاتهم منظمة فى مواعيدها ، وفى حجرات واسعة، معدة لهذا الغرض ، تمر عليهم القهوة فى فناجين جميلة يصبها خدم على جانب كبير من النظافة ، وينهون جلساتهم بالطعام الجماعى(٨٣) .

وطعامهم كان دسما ومنوعا ، كالأرز بالكارى ، وأنواع البهار ، واللحم المطهى بالبصل والمسلى ، والسمك والطيور والخضروات ، وتناولوا المنبهات كالقهوة والشاى ، ودخنوا الغليون (٨٤) .

كل هذا يدل على حياة الاستقرار والأمان التى عاشوها وعاشها معهم الوطنيون الزنوج الذين تعلموا الطهى والتعامل والمجالسة ، فهذا الزعيم سالا سالا كان يأكل الأرز مطهيا ، وقدم لضيوفه الدجاج المحمر والمسلوق(٨٥)، كما رددوا معهم عبارات الترحيب بالضيوف باللغة العربية ، وشارك الزنوج العرب فى وداع ضيوفهم بطبولهم ورقصاتهم الوطنية .

وعندما اتخذ العرب زينتهم فى مهاجرهم فى الكونغو ، رصعوا ثيابهم بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، قلدهم الزنوج فارتدوا الملابس مثلهم وزينوها بأسلوبهم الوطنى بالاسلاك وانياب وعظام الحيوانات ، وصففت النساء شعورهن مثل نساء العرب ، وحلق الرجال رؤوسهم مثل العرب(٨٦).

---

(82) Cameroon, V. : op. cit., pè 47-163.

(83) Cameroon, Ibid, p. 150.

(84) Burton, R. : op. cit., vol. 1, p. 329.

(85) Jameson : op. cit., p. 314.

(٨٦) لمزيد عن حياة العرب فى الكونغو وتأثر الزنوج هناك بهم ، يرجع الى رسالة يواقيم رزق : المرجع السابق .

وعموما اكتسب الزنوج ثقافات ومهارات من العرب جعلتهم أكثر احتراما فى نظر الأوروبيين حين لقاءاتهم بهم ، واستقبالاتهم الرسمية لهم(٨٧) .

ونختم هذه الدراسة بقول أحد الكونغوليين المثقفين وهو جرينفيل وزير الدولة فى حكومة لومومبا : « لقد زور البلجيكيون كل شىء فى الكونغو، فليست مدينة ستانلى فيل من قبل سوى مدينة تيبوتيب القديمة ، التى أقامها قبل قدوم الرحالة ستانلى ، وليس العرب — كما قالوا لنا — تجار رقيق ، وانما هم تلك الموجة الانسانية التى اختلطت بنا وصاهرتنا ، وتركوا لنا على أرضنا دماءهم ، والبلجيكيون يحصدونهم بالأسلحة الحديثة ، وليس أعز علينا شىء سوى هذا الدم العربى الذى سال فى الماضى ، كما يسيل دمنا فى بلادنا ... على أيدى نفس أعداء العرب فى القرن الماضى »(٨٨) .

---

(87) James, B. : op. cit., p. 46.

(٨٨) يواقيم رزق : معهد البحوث والدراسات العربية : المرجع السابق ، ص ١٧٣ .

obeikan.com